معوقاتٌ في مُواجَهَةِ النَّظَرِيَّةِ الأدبيةِ الإسلاميةِ

الحلقة العاشرة　　　　د/ علي يوسف اليعقوبي

العلمـانيــة

لَقَد ظَهَرَتِ العَلمانيَّةُ في أُوروبَّا مُنذُ القَرنِ السَّابعَ عَشَرَ الميلاديِّ، ثُمَّ انتَقَلَت إلَى الشَّرقِ في بدايَةِ القَرنِ التَّاسِعَ عَشَرَ المِيلاديِّ، وَهِيَ مُصطَلَحٌ مُخادِعٌ، وَلا يَعكِسُ الصُّورَةَ الحَقيقِيَّةَ لِجَوهَرِهِ وَمَضمونِهِ، إذ لا صِلةَ بَينَ هَذا المُصطلَحِ وَبينَ الأصلِ الاشتِقاقيِّ لِمُصطلَحِ (**العِلم**) كَمَا سَيَتَّضِحُ لاحِقًا، وَيَبدو أَنَّهُ قَد تَمَّ اختِيارُ هَذا المُصطلَحِ (**العَلمانية**) لأنَّهُ أقَلُ إثارَةً وَضَجَّةً مِن مُصطلَحِ (**لادينيَّة**).

وَمادامَ المُصطلَحُ أوروبيَّ النَّشأةِ وَالفِكرَةِ، فَلا بُدَّ أن نُلقِيَ نَظرَةً عَلى أَصلِ مَعناهُ الَّذي اشتُقَّ مِنهُ، حَتَّى نَكونَ عَلى بَيِّنَةٍ مِن أهدافِهِ وَحَذَرٍ مِن مَقاصِدِه، وَمَرامِيهِ، فَالعَلمانيَّةُ (بِفَتحِ العَينِ) " تُقابِلُهَا في الإنجليزيَّةِ (Secularism) وَأصلُهَا اللاتينيِّ (Saeculum) ويَعنِي الدَّهرَ (Aye) أَوِ العَالَمَ (World) أَوِ الزَّمَنَ (Time) وَالعَلمانيُّ عَكسُ الدِّينيِّ، وَيُستَخدَمُ اصطِلاحًا، لِلإشارَةِ إلَى مَدخَلٍ لِلحَياةِ، يَنفَصِلُ تَمامًا عَنِ الدِّينِ، ... وَعَلى المُستوى العامِّ؛ تَعنِي العَلمانيَّةُ: المَذهَبَ الَّذي يُؤمِنُ بِضَرورَةِ إبعادِ المُؤسَّساتِ الدِّينيَّةِ، وَالمَناصِبِ الدِّينيَّةِ، عَن مُمارَسَةِ أيِّ تَأثيرٍ، أَو لَعِبِ أيِّ دَورٍ في أيٍّ مِن مَجالاتِ الحَياةِ العامَّةِ؛ بِمَا في ذَلِكَ: التَّعليمُ، وَالتَّشريعُ، وَالإدارَةُ، وَشُؤونُ السِّياسَةِ، وَالحُكمِ" [(١)].

يَجِبُ أن نُقَرِّرَ – **أيضًا** – بِأنَّ العَلمانِيَّةَ ظَاهِرةٌ أوروبيَّةٌ كَنَسِيَّةٌ صِرفَةٌ؛ أوروبيَّةُ الوَسَطِ وَالمَحضَنِ، وَالحَضَارَةِ، وَالفِكرِ، كَنَسِيَّةُ العُقدَةِ، وَالمُشكِلَةِ، وَمِن هُنا يَتَّضِحُ لَنا أنَّ العَلمانيَّةَ لَيسَت مُشكِلَةً إسلاميَّةً بِأيِّ شَكلٍ مِنَ الأَشكالِ، لا عَلى المُستَوى الدِّينيِّ وَلا عَلى المُستَوى الأَخلاقِيِّ، وَلا عَلى المُستَوى الاجتِماعِيِّ، وَلا عَلى المُستَوى الحَضارِيِّ، وَلم يَكُن لِحُضورِهَا بَينَنَا أيُّ مُبَرِّرٍ عَلى الإطلاقِ [(٢)]، لأنَّهَا "نَشأَت مُتأثِّرَةً بِالعقلِ الفَلسَفِيِّ الذي أبدعَهَا وأفرزَهَا، فَهِيَ تَحمِلُ نَكهةَ البِيئَةِ التي خَرجَت مِنهَا، وَلِذَلكَ فَهِيَ تُمثِّلُ خُصوصيّةَ البِيئَةِ وَالثقَافةِ، وَاللُّغةِ، وَالعَقلِ الذي أَنتجَهَا ضِمنَ بِيئاتِ أَوروبَّا المُختلفةِ، التِي يَجمعُهَا التُّراثُ المُشتَرَكُ لِلعقلِ الفَلسفِيِّ، بالإضَافَةِ إلَى النّكهَاتِ المَحليّةِ لِتلكَ البِيئَاتِ" [(٣)].

فَالعَلمانيَّةُ إذًا " فِكرَةٌ مُستَورَدَةٌ، لا يَشُكُّ في ذَلِكَ أَعداؤُهَا، وَلا يُمارِي فِيهَا أَحَدٌ مِن دُعاتِهَا.. لِذَلِك وَجَبَ – **قَبلَ كُلِّ شَيءٍ** – أَن نَنظُرَ إلَيها، نَظرَتَنَا إلَى أيَّةِ بِضاعَةٍ مُستَورَدَةٍ، مِن جِهَةِ حاجَتِنَا إليها، أَو عَدَمِها، فَمَا لَم نَكُن بِحاجَةٍ إلَيهِ، فَإنَّ المَفروضَ فِينا أن نُمَيِّزَ وَنَختارَ، وَنَأخُذَ

---

(١) عامر رشيد مبيض– موسوعة الثقافة السياسية الاجتماعية الاقتصادية العسكرية– مصطلحات ومفاهيم، ص٩٤٥–٩٤٦.

(٢) يُنظر/ محمد مهدي شمس الدين – العلمانية – ط٢، ص٨،٧.

(٣) عباس المناصرة – العلمانية الأدبية ضرورة أم اختراق فكري – موقع المختار الإسلامي *www.islamselect.com*

يُنظر/ د. سفر الحوالي – العلمانية، نشأتها و تطورها.. – ص٦٥–٦٦.

أَخذَ الوَاعِي الحذِرِ، وبِتَطبيقِ هَذِهِ البَديهيَّةِ عَلى العَلمانيَّةِ، نَجِدُ أنَّها بِضاعةٌ.. مِنَ الحُمقِ وَالغَباءِ أَن نَستَجلِبَهَا، حَتَّى وَإن كانَت نافِعَةً مُجدِيَةً، بِالنِّسبةِ لِلمُجتَمَعاتِ وَالظُّروفِ الَّتي أَنتَجَتها " [٤]، فَكَيفَ وَإن أَنتَجَتِ الخَرابَ وَالدَّمارَ، وفرَّخَتِ الشَّقاءَ وَالضَّياعَ، وَالجفَافَ العَاطِفِيَّ، وَالقَحطَ الرُّوحَانِيَّ، وَانفِصَامَ عُرَا القِيَمِ، وَانهِيَارَ الأَخلاقِ، "وَرُبَّمَا لَم يَكُن هُنَاكَ مَجَالٌ تَأَثَّرَ بِالعَلمَانِيَّةِ، بِقَدرِ مَا تَأَثَّرتِ الأَخلاقُ" [٥].

إنَّ العَلمانيَّةَ تَعنِي فِي حَقيقَتِهَا؛ " اللادينيَّةَ، وَتدعو إلَى إقامَةِ المُجتَمَعِ الإنسانيِّ، عَلَى أَساسِ العَقلِ وَالعِلمِ الوَضعِيِّ ، وَمُراعاةِ المَصلَحَةِ، بَعيدًا عَنِ الدِّينِ، كَمَا تَعني فِي جَانِبِهَا السِّيَاسِيِّ بِالذَّاتِ، اللادينيَّةَ فِي الحُكمِ، أَو مَا اتُّفِقَ عَليهِ عِندَ أَصحابِ هَذا المَذهَبِ، مِن فَصلِ الدِّينِ عَنِ الدَّولةِ، وَإِبقائِهِ حَبيسًا فِي ضَميرِ الفَردِ، وَلا يَتَجاوَزُ العَلاقَةَ بَينَهُ وَبَينَ رَبِّهِ (**أعطِ مَا لِقَيصَرَ لِقَيصَرَ، وَمَا للهِ للهِ**) [٦] وَإن سُمِحَ لَهُ بِالتَّعبيرِ عَن نَفسِهِ، فَفِي الشَّعائِرِ الدِّينيَّةِ التَّعَبُدِيَّةِ، وَالمَراسِمِ الخاصَّةِ بِالزَّواجِ وَالطَّلاقِ وَالوَفاةِ.. وَنَحوِ ذَلِكَ، الشَّيءَ الَّذي يَنأَى بِأَصحابِ الفِكرِ الدِّينِيِّ، أَن يَتَناوَلَ أَحَدٌ مِنهُم أُمورَ السِّياسَةِ، وَالحُكمَ، أَو يَتَعَرَّضَ لَهُما بِحالٍ مِنَ الأحوالِ، وَهِيَ بِذَلِكَ تَتَّفِقُ وَالنَّصرانيَّةِ فِي هَذِهِ الجُزئِيَّةِ [٧].

وَإذا كانَت العَلمانيَّةُ وَغيرُها، مِنَ المَذاهِبِ الفِكريَّةِ وَالفَلسَفيَّةِ وَالأَدَبيَّةِ، قَد وُلِدَت مِن رَحِمِ التَّناقُضاتِ الدِّينيَّةِ وَالاجتِماعيَّةِ، الَّتي سادَت أُوروبَّا إبَّانَ الحُروبِ الدَّاخِليَّةِ العَنيفَةِ الَّتي خاضَتهَا، وَالَّتي كانَت نِتاجًا طَبيعيًا لِلبُعدِ عَن دينِ اللهِ القَويمِ، فَهَل كانَ للعَلمانيَّةِ مَا يُبَرِّرُ وُجودَهَا، وَيسَوِّغُ تَبَنِّيَهَا ؟ سَواءٌ عَلى مُستَوَى التَّصَوُّرِ، أَوِ التَّطبيقِ؟.

لَقَد كانَتِ العَلمانيَّةُ رَدَّ فِعلٍ خاطِئٍ لِدينٍ مُحَرَّفٍ، وَأَوضاعٍ خاطِئَةٍ كَذلِكَ، وَإنَّهَا نَباتٌ نَكِدٌ، خَرَجَ مِن تُربَةٍ خَبيثَةٍ، فَأوروبَّا نُكِبَت بِالكَنيسَةِ، وَدِيانَتِهَا المُحَرَّفَةِ، وَطُغيانِها الأَعمَى، وَسارَت أَحقابًا مِنَ الدَّهرِ تَتَعثَّرُ فِي رِكابِهَا، ثُمَّ انتَفَضَت عَليها، وَتَمَرَّدَت عَلى سُلطَتِها، فَانتَقَلَت مِن انحِرافٍ إِلَى انحِرافٍ آخَرَ، وَسارَت فِي خَطٍّ مُضادٍّ، إلاَّ أَنَّهُ أَعظَمُ خَطَرًا، وَأَسوَأُ مَصيرًا؛ انتَقَلَت مِن جاهِلِيَّةٍ تَتَخَفَّى خَلفَ مُسوحِ التَّنَسُّكِ وَالتَّدَيُّنِ، إلَى جاهِلِيَّةٍ تَلبَسُ مُسُوحَ التَّقدُّمِ وَالتَّطَوُّرِ.. وَالَّذي دَفَعَت إليهِ ظُروفٌ تاريخِيَّةٌ بِيئِيَّةٌ، نابِعَةٌ مِن واقِعِ الحَياةِ الأوروبيَّةِ، مَعَ العِلمِ بِأَنَّهُ لَم يَكُن ضَرُورِيًا، أَن يَتَّخِذَ رَدُّ الفِعلِ الأوروبيِّ تِلكَ الصِّفَةَ بِعَينِها، وَأَنَّ مَجيئَهُ عَلى هَذا الشَّكلِ لَيسَ حَتمِيًّا؛ أَي أَنَّهُ لَم يَكُن ذَلِكَ التَّغيُّرُ، وَعَلى هَذِهِ الشَّاكِلَةِ مِنَ التَّطَرُّفِ، قَدَرًا مَقدُورًا عَلى كُلِّ مُجتَمَعٍ ابتُلِيَ بِدينٍ

---

(٤) د. سفر الحوالي – العلمانية، نشأتها و تطورها.. ص٢١.

(٥) محمد قطب – مذاهب فكرية معاصرة – ط٨، ص٤٨٣.

(٦) هذه العبارة منسوبة للسيد المسيح عليه السلام زورًا وبهتانًا، وظلت أوروبا ترفعها شعارًا، كلما أملى عليها الهوى أن تخالف منهج الله وتتمرد عليه، وبفضل هذا الشعار انحسر الدين وانكمش على مر العصور، حتى لم يبق منه إلا ساعة من نهار كل أسبوع، وهذه العبارة ظاهرها الأمر الصريح بالشرك، حين جعلت قيصر شريكًا لله في التوجه إليه، وهو شرك في الطاعة والاتباع.

يُنظر/ د. سفر الحوالي – العلمانية، نشأتها و تطورها.. – ص٦٥–٦٦.

(٧) د/ مانع الجهني – الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ج٢، ص٦٨٩ (بتصرُّف).

مُحرَّفٍ، أَن يَخرُجَ عَنهُ، لِيُكوِّنَ مُجتمعًا (**لادينيًا**)، بَلِ الافتِراضُ الصَّحيحُ هُوَ: أَن يَبحَثَ عَن الدِّينِ الصَّحيحِ الَّذي يَأخُذُ بِيَدِ المُجتَمعِ، لِيَنقُذَهُ وَيَنجُوَ بِهِ (٨).

وَهَكَذَا تَبدُو الصُّورَةُ نَاصِعَةً جَلِيَّةً، فَقَد تَعرَّضَ أَدَبُنَا العَرَبِيُّ الحَدِيثُ، وَالشِّعرُ مِنهُ عَلَى وَجهِ الخُصُوصِ، إِلَى حَملَةٍ شَعوَاءَ، قَاسِيَةٍ، قَاصِمَةٍ، أُرِيدَ مِنهَا أَن تَستَأصِلَ شَأفَةَ هَذَا الأَدَبِ، لِيَكُونَ صُورَةً مُشَوَّهَةً عَنِ الأَدَبِ الغَربِيِّ، وَلا شَكَّ أَنَّ ذَلِكَ قَد تَمَّ بِصُورَةٍ أَو بِأُخرَى، حَيثُ انبَرَت فِئَةٌ مِن أَبنَاءِ أُمَّتِنَا تُقَلِّدُ، وَتُحَاكِي – **سَوَاءٌ عَن وَعيٍ أَم عَن غَيرِ وَعيٍ** – وَتَسعَى وَرَاءَ جَلادِيهَا سَعيَ المُنبَهِرِ المَضبُوعِ، فَعَاشَ – بِذَلِكَ – أَدَبُنَا العَرَبِيُّ المُعَاصِرُ حَالَةً مِنَ الاستِلابِ الفِكرِيِّ، وَالتَّجمُّدِ الحَضَارِيِّ، لَم يَعِش مِثلَهَا عَبرَ تَارِيخِهِ كُلِّهِ، فَرَاحَ يَصدُرُ فِي نَمَاذِجِهِ الَّتِي سُلِّطَت عَلَيهَا الأَضوَاءُ، عَن أَفكَارِ الغَربِ، وَمَدَارِسِهِ، وَمَذَاهِبِهِ، يَحذُو خُطَاهَا، حَذوَ القَذَّةِ بِالقَذَّةِ..، وَيَرَى فِيهَا النَّمُوذَجَ الرَّفِيعَ الَّذِي يَجِبُ أَن يُقتَدَى، وَيُحتَذَى، وَقَد سَبَقَ أَن عَبَّرَ غَالِي شُكرِي عَن هَذِهِ الرُّؤيَةِ بِكُلِّ وُضُوحٍ (٩)، حِينَ رَأَى فِي شُعَرَائِهِ نُسَخًا مُصَوَّرَةً مِن كِبَارِ شُعَرَاءِ أُورُوبَّا (١٠).

كَمَا بَدَا وَاضِحًا أَنَّ المَذَاهِبَ الغَربِيَّةَ، بِكَافَّةِ أَطيَافِهَا، وَتَوَجُّهَاتِهَا، إِنَّمَا هِيَ تَعبِيرٌ عَن حَالاتٍ خَاصَّةٍ، وَظُرُوفٍ نَفسِيَّةٍ، وَحَضَارِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، تَعِيشُهَا المُجتَمعَاتُ الأُورُوبِيَّةُ، فَهِيَ مُنتَجٌ غَربِيٌّ صِرفٌ، تُؤَدِّي دَورَهَا الحَقِيقِيَّ، وَبِكُلِّ صِدقٍ وَأَمَانَةٍ، فِي التَّعبِيرِ عَن طَبِيعَةِ تِلكَ المُجتَمعَاتِ، وَتُصَوِّرُ وَاقِعَهَا تَصوِيرًا تَارِيخِيًّا دَقِيقًا، بِمَا فِيهِ مِن تَعقِيدَاتٍ، وَجَفَافٍ، وَتَصَحُّرٍ فِي عَلاقَاتِهِ الأُسَرِيَّةِ، وَالاجتِمَاعِيَّةِ، وَرَفضٍ لِكُلِّ المُثُلِ، وَالأَخلاقِ، وَثَورَةٍ عَلَى القِيَمِ، وَالثَّوَابِتِ، وَالتَّقَالِيدِ، وَيَصِفُ الدُّكتُورُ سَفَرُ الحَوَالِيُّ الأَدَبَ الأُورُوبِّيَّ، كَونَهُ تَرجَمَةً لِلحَيَاةِ الأُورُوبِيَّةِ فَيَقُولُ: "وَالأَدَبُ الأُورُوبِّيُّ – **خَاصَّةً** – لَهُ قِصَّتُهُ الطَّوِيلَةُ، وَتَارِيخُهُ السَّحِيقُ، فَوقَ أَنَّ مُعظَمَ قَضَايَاهُ كَانَت وَستَظَلُّ مَثَارَ نِزَاعٍ، وَمَدَارَ جَدَلٍ شَدِيدٍ بَينَ البَاحِثِينَ وَالنُّقَّادِ..، وَإِذَا وَافَقنَا الرَّأيَ القَائِلَ بِأَنَّ الأَدَبَ هُوَ "**صُورَةُ الحَيَاةِ وَانعِكَاسُهَا الوَاضِحُ**"، فَمَا بَالُنَا بِصُورَةِ حَيَاةٍ كَحَيَاةِ أُورُوبَّا، حَائِرَةٍ مُضطَرِبَةٍ مُتَهَافِتَةٍ مُتَنَاقِضَةٍ" (١١).

كَذَلِكَ اتَّضَحَ أَن هَذِهِ المَدَارِسَ الأَدَبِيَّةَ، وَالمَذَاهِبَ الغَربِيَّةَ، وَالَّتِي أَرَادَ لَنَا بَعضُ أُدَبَائِنَا، وَنُقَّادِنَا أَن نَسِيرَ فِي رِكَابِهَا، أَنَّهَا لَيسَت مُجَرَّدَ تَجدِيدَاتٍ فِي الشَّكلِ، أَو تَطوِيرٍ فِي الأَسَالِيبِ، وَالأَدَوَاتِ الفَنِّيَّةِ، وَلَو كَانَ الأَمرُ عَلَى هَذِهِ الشَّاكِلَةِ لَكَانَت هُنَاكَ نَوَافِذُ لِلتَّوَاصُلِ، وَالحِوَارِ بَينَنَا وَبَينَهَا..، وَلَكِنَّ الأَمرَ مُختَلِفٌ تَمَامًا، "فَالكلاسِيكِيَّةُ فَلسَفَةٌ وَثَنِيَّةٌ تَقُومُ عَلَى تَمجِيدِ العَقلِ، وَالرُّومَانسِيَّةُ فَلسَفَةٌ مَسِيحِيَّةٌ، وَهِيَ ثَورَةٌ عَلَى العَقلِ وَتُمَجِّدُ العَاطِفَةَ، وَهَذِهِ الثَّورَةُ تَشمَلُ الأَعرَافَ، وَالمَبَادِئَ، وَالأَخلاقَ، وَالإِسلامُ يَتَصَادَمُ مَعَ هَذِهِ المَذَاهِبِ لأَنَّهَا تَستَنِدُ إِلَى فَلسَفَاتٍ خَطِيرَةٍ جِدًّا وَنَحنُ المُسلِمِينَ لا نَرفُضُ العَقلَ، وَلا نَرفُضُ العَاطِفَةَ.. وَمَا نَرفُضُهُ.. أَن يَكُونَ تَوجِيهُ العَقلِ وَالعَاطِفَةِ قَائِمًا

---

(٨) د/ سفر الحوالي – العلمانية، نشأتها و تطورها.. – ص٦٤٨– ٦٤٩، (بتصرُّف).

(٩) ينظر/ د.غالي شكري – شعرنا الحديث إلى أين – ص١١٣.

(١٠) ينظر/ السابق نفسه: ص١١٣.

(١١) د/ سفر الحوالي – العلمانية .. نشأتها وتطورها.. ص٤٥١.

عَلَى فَلسفةٍ مُعيَّنةٍ، بِالصُّورةِ التِي تَأدَّت بِهَا إِليهِ" [١٢]، أمَّا فِيمَا يَتعلَّقُ بِالشَّكلِ، وَأدواتِ التَّعبيرِ، فَإنَّ الإِسلامَ لا يَعترضُ عَلَى أَيَّةِ طَرِيقَةٍ مِن طَرائِقِ التَّعبيرِ، سَواءٌ كَانَ هَذَا الأُسلوبُ تَقريريًّا مُباشِرًا، أَم بِالرَّمزِ، أَو بِالإِشَارةِ، أَو أَيَّةِ طَرِيقةٍ أُخرَى يَبتكرُهَا العَقلُ البَشريُّ، مَا لَم تَنقل فَسَادًا، أَو تُصوِّر فَاحشةً، وَمَا لَم تَهبط بِاللُّغةِ نَحوَ مَدارجِ الإِسفافِ، أَو الاستهانَةِ، وَمُحاولَةِ تَفكيكِهَا، وَتَكسيرِ قَوَاعدِهَا، وَالتَّقليلِ مِن شَأنهَا.. كُلُّ ذَلكَ ضِمنَ إِطَارٍ عَامٍّ وَاحدٍ: هُوَ عَدمُ الخُروجِ عَلَى قَواعدِ العَقِيدةِ، وَالدِّينِ.. وَمَا عَدَا ذَلكَ فَالإِسلامُ أَطلقَ العنانَ لِلأديبِ المُسلمِ كَي يَجولَ، وَيَصولَ، وَيَبتكِرَ مَا يَشاءُ، فَقَد تَعرَّضَ الشِّعرُ العَربيُّ لِلتَّطويرِ، وَالتَّجديدِ عَبرَ العُصورِ..، وَلكنَّ الأَمرَ أَعمقُ مِن ذَلكَ، فَالمَذاهبُ الغَربيَّةُ مُجتمعةً، تَعتمدُ عَلَى خَلفيَّاتٍ فِكريَّةٍ فَلسفيَّةٍ، تُحاولُ إِعادةَ صِيَاغَةِ العَقلِ البَشريِّ، فِي تَعامُلِهِ، وَنَظرتِهِ لِلخَالقِ (ﷻ)، ثُمَّ لِلكَونِ، وَالإِنسانِ، وَالحَيَاةِ، وَالبَعثِ، وَالنُّشورِ، وَالطَّبيعةِ.. وَمَا إِلَى ذَلكَ مِن أُمورٍ..، حتَّى بَاتَت تَطمحُ لأَن تَطرحَ نَفسهَا دِينًا جَديدًا لِلبَشريَّةِ عَامَّةً..، وَلكنَّ اللافِتَ لِلنَّظرِ..، وَعَلَى الرَّغمِ مِن خُصوصيَّةِ نَشأةِ تِلكَ المَذاهِبِ كَمَا هُوَ مَعروفٌ، إِلا أنَّ أُدبَاءَنَا لَم يَقف بِهِمُ الحدُّ عِندَ مُحاكَاةِ النَّماذجِ الغَربيَّةِ، فِي شَكلِهَا، وَفِي أَسالِيبِهَا، وَطَرائِقِ تَعبيرِهَا، بَل رَاحُوا يَصطنِعُونَ المَوَاقفَ، وَيَفتعِلونَ القَضَايَا وَالمَشاكلَ افتِعالاً، حتَّى بَدَت مُشكلاتُ الحَيَاةِ الأَوروبيَّةِ، وَكَأنَّهَا مُشكلاتُنَا نَحنُ، وَهُمومُهَا، وَكأنَّهَا هُمومُنَا نَحنُ، فَقَد رَاحَ أُدباؤنَا، وَشُعراؤنَا، يَفتعلُونَ الأَلَمَ، وَالقَلقَ، وَالضَّياعَ، وَالتَّمردَ، وَالجُحودَ، وَالثورةَ عَلَى كُلِّ الثوابتِ، الدِّينيَّةِ، وَالخُلُقِيَّةِ، وَالاجتماعِيَّةِ.. إِلَى آخِرِ هَذهِ المَجموعَةِ مِنَ الأَفكَارِ السَّقيمَةِ [١٣]، فَهَا هُوَ أَدونيسُ، وَعلَى الرَّغمِ مِن تَلبُّسهِ بِعبَاءَةِ التَّقدُّميَّةِ، نَراهُ يُجاهِرُ بِالدَّعوةِ إِلَى الاحتِفاءِ بِالحَضَارةِ الغَربيَّةِ، وَالتَّقليلِ مِن شَأنِ التُّراثِ العَربيِّ، وَالإِسلاميِّ، ذَلكَ أَنَّ "الحَضارَةَ العَربيَّةَ تَعنِي **"الثَّبَات"**، أَي التَّقليدَ، وَالنَّقلَ، فِي حِينِ أَنَّ الحَضَارَةَ الغَربيَّةَ قَائمةٌ عَلَى طَلبِ المُغامَرةِ، وَالاستكشَافِ "وَأمَّا التُّراثُ "فَلا قُدسيَّةَ لِلتُّراثِ، لَيسَ كَامِلاً، وَلَيسَ مُطلقًا، وَلا حَاكِمًا، وَغيرَ مُلزِمٍ" [١٤].

وَبِذلِكَ ضَلَّ أَدبُنَا العَربيُّ الأَصيلُ، وَانحرفَ عَن مَسارِهِ الطَّبيعيِّ، فَبَدَلاً مِن أَن يَقومَ بِدورِ المُصلحِ، وَالمُقوِّمِ، الذِي يَربطُ الإِنسانَ بِربِّهِ، وَخَالقِهِ، وَيُدافِعُ عَن قِيمِ مُجتمعهِ، وَعَاداتِهِ، وَتَقاليدِهِ، نجدهُ صارَ عَلَى النَّقيضِ مِن ذَلكَ، حَيثُ تَحوَّلَ إِلَى مِعولٍ مِن مَعاولِ الهَدمِ الكَثِيرةِ، بَل هُوَ مِن أَهمِّ، وَأَقوَى هَذِهِ المَعاولِ.

وَمِنَ المَثالِبِ، وَمَواطنِ الضَّعفِ التِي عَصَفت بِهذِهِ المَذاهِبِ.. نَظرتُهَا الجُزئيَّةُ لِلأَشياءِ، بَل وَمُغالاتُهَا فِي قضيَّةٍ مُعيَّنةٍ، عَلَى حِسابِ سَائرِ قَضَايا الحيَاة، مِمَّا أَفقدهَا القُدرَةَ عَلى تَكوينِ نَظرَةٍ شَامِلةٍ وَكامِلةٍ وَمُتَناسِقةٍ [١٥]، فَقد قَدَّست بَعضُ المَذاهِبِ الغَربيَّةِ العَقلَ، وَجَعلتهُ مَحلَّ تَقديرٍ،

---

(١٢) أنور الجندي – تميز الأدب الإسلامي وأصالته (سلسلة: على طريق الأصالة) ص١١، ١٢.

(١٣) ينظر/ د. وليد قصاب – الحداثة في الشعر العربي المعاصر – ص٧٦، ٧٧.

(١٤) أدونيس – الثابت والمتحول – ج٣، ص٢٧٧.

(١٥) ينظر/ د. عدنان علي رضا النحوي – الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته – ص٢٨٤، ٢٨٥.

وَإجلالٍ عَظِيمَينِ، ولَكنَّنَا إذَا مَا فَصلنا هَذَا الجُزءَ عَن بَاقي أَجزاءِ الفِكرِ الإنسانِيِّ، رَأَينَا كَيفَ انحَرفَ، وَرَاحَ يُمثِّلُ القُبحَ، وَالظُّلمَ، وَالبَاطلَ..، فَجَميعُ المَذَاهبِ الفَلسفيَّةِ التِي اختَرعهَا الإنسانُ، هِيَ مَذاهِبُ قَاصرَةٌ، ولا يُمكنُ لَهَا أَن تَحملَ بِمُفردِهَا قَضَايَا الكَونِ، وَالإنسانِ، وَالحيَاةِ بِشكلٍ عامٍّ، فَهِيَ إن حَمَلت فإنَّما تَحمِلُ جُزءًا مِن قَضيَّةٍ، وَبِذلكَ يَبقَى تَصوُّرهَا لِلأَشياءِ تَصوُّرًا قَاصِرًا مُبتسرًا، وَلِهَذا السَّببِ كُنَّا نَرى تَعَاقُب المَذاهبِ، وَتَوالِي النَّظريَّاتِ، وَكُلَّما جاءَ مَذهبٌ.. لَمعَ بَريقُ وَهجِهِ بَعضَ الوَقتِ، ثُمَّ لَم يَلبَث أَن يَنطفِئَ.. فَالجُهدُ البَشريُّ يَظلُّ قَاصِرًا مُجتزأً، وَلَن يَستَطيعَ الوُصولَ إلَى الشُّمولِ المُطلقِ فِي هَذَا الكَونِ، فَالنَّقصُ لا يُمكنُ أن يُوصِلَ إلَى الكَمالِ، وَهَذهِ سُنَّةٌ مِن سُنَنِ اللّهِ (**تَعَالَى**)، فَالجُزءُ لا يُمكنُهُ أن يَبلُغَ الكُلَّ، وَالمَخلوقُ النَّاقِصُ المَحدودُ لا يُمكنُهُ أَن يَبلُغَ الكَامِلَ اللامَحدودَ مَهمَا حَاولَ، وَاجتَهَدَ، وابتَكَرَ فَطَاقَاتُهُ مَحدودَةٌ، وَغيرُ مُهيَّأَةٍ لِبُلوغِ الكَمالِ، وَمَهمَا بَلَغتِ البَشريَّةُ مِن رُقِيٍّ، وَتَحضُّرٍ، وَعلمٍ، فَلَن تَستَطيعَ أَن تُفلِتَ مِن قَبضَةِ (النَّقصِ) لأَنَّهُ مُركَّبٌ أَسَاسٌ مِن مُركَّبَاتِهَا، وَمُكوِّنٌ رَئِيسٌ مِن مُكوِّنَاتِهَا الفِكريَّةِ، وَالنَّفسيَّةِ، وَلا حلَّ لِمُعضِلاتِ الإنسانِ إلا بِاللُّجوءِ إلَى الخَالِقِ البَارِئِ، الذِي أَوجدهُ، فَهُوَ أَعلمُ بِهِ مِن نَفسِهِ، وَهُوَ الذِي يَعلَمُ مَا يُصلِحهُ، وَذَلكَ مِن خلالِ الطَرِيقِ الوَحيدِ لِلتَّواصُلِ؛ وَهُوَ طَريقُ الوَحيِ وَالنُّبوَّاتِ، ﴿ أَلا يَعلَمُ مَن خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ﴾ (١٦).

لقد استُوردَت هذهِ المذاهبُ "التَّماثيلُ" لِتَحقِيقِ مَا لَم تَستَطِع أَن تُحققَهُ الحُرُوبُ الصَّليبيَّةُ عَبرَ حَمَلاتِهَا المُتَعاقِبَةِ، وَإِن اختَلَفتِ الأَشكَالُ وَأُخفِيَتِ الأَهدَافُ، لِذَا.. فَإِنَّ هَذِهِ المَذاهِبَ الغَرِيبَةَ عَن بيئتِنَا الإسلاميَّةِ الأَصيلةِ، لَن تَجِدَ لَهَا وَرِيثًا حَقيقِيًّا يَرثُهَا، أَو يَصمُدُ فِي مُواجَهَةِ المَدِّ الإِسلامِيِّ، وَهَذَا التَّفاؤلُ لَيسَ ضَربًا مِن الخيَالِ، أَو شَطحَةً مِن شَطَحَاتِ النَّفسِ العَاجِزَةِ، المُتَوَاكِلَةِ، وَلَكِنَّهَا قِرَاءَةٌ إسلاميَّةٌ إيمَانِيَّةٌ لِسُنَّةٍ مِن سُنَنِ اللّهِ فِي هَذَا الكَونِ..، وَلَكِنَّ هَذَا التَّفاؤلَ يَفرِضُ عَلَينَا أَن نَكُونَ يَقِظِينَ لِمَا يَدُورُ حَولَنَا، وَأَن نُحَذِّرَ أَبنَاءَنَا الشَّبَابَ أَيضًا مِنَ الوُقُوعِ فِي شَرَكِ أُولَئِكَ الحَدَاثِيِّينَ، وَالعَلمَانِيِّينَ.

(١٦) سورة الملك: الآية١٤